

التغير الثقافي ودوره في التنمية البشرية، نموذج (مالك بن نبي).

الأستاذ: سليمان ملوكي.

جامعة المسيلة

النصوص والأحاديث تحت على هذا النهج. وكذلك مسيرة التاريخ الإسلامي في البحث والإبداع والمصادقية في القول والعمل.

وإذا كانت امتنا تشكو من التخلف الحضاري، فإن طوق نجاتها من هذا التخلف هو التجديد الحضاري... إن عدو هذا التجديد هو التقليد للنماذج الحضارية الغربية الوافدة التي تعطل ملكة الإبداع و الابتكار ... ولن تنهض الأمة إلا بالتجديد، انه ضروري لها إذا ما أرادت اللحاق ببقية الأمم.

إن التغير الاجتماعي هو بالضرورة عملية تغير ثقافي، إذ أن التغير في البنى الاجتماعية والاقتصادية أو

من المسلم به أن التغير ليس سنة ثابتة، ولكنه مطلب حضاري واجتماعي. كما يعد مطلبا شرعيا دعانا إليه القرآن الكريم والسنة المطهرة، إذ يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

وهنا يرد التغير في الآية الكريمة، على أساس أنه فعل إيجابي بل أساسي لأي تغير للأمم وللأفضل ويؤكد على السنة الكونية في التغير والتطور من أجل مصلحة المجتمع وحفاظا على حيويته وعطائه ومنزلته بين المجتمعات. فيكون بذلك المجتمع قويا من داخله مسائرا لعصره محافظا على هويته وشخصيته. فهناك الكثير من

مراحل التاريخ البشري. وقد استمد مالك أمثله من استقراء الوقائع التاريخية الماضية للعالم الإسلامي وحضارته وللحضارات السابقة أيضا.

لقد وضع مالك بن نبي في نظريته عن التغيير الاجتماعي أساس هذا التغيير ومجالاته سواء على مستوى الفرد أو المجتمع. وأكد أن الوظيفة الأساسية للدين بمفهومه العام هي إحداث كافة التغييرات الاجتماعية التحويلية الهامة في (الإنسان والزمن، والتراب) وما يتبعها من معطيات نفسية اجتماعية تحدث من خلالها التغييرات لتحقيق الغاية النهائية لحركة المجتمع حيث يتحقق في النهاية في شكل حضارة.

إن سقوط المجتمعات وتدهورها في مسيرة الدورة الحضارية كان نتيجة لغياب الوظيفة الاجتماعية للدين، إذ أن البناء الاجتماعي في أي مجتمع لا يقوى على البقاء بمقومات الفن والعلم والعقل فحسب، بل بالروح. فالعلاقة الروحية بين المعبود والإنسان هي التي توجد العلاقة الاجتماعية. فالدين حين يخلق الشبكة الروحية التي تربط

السياسية لابد أن يشمل تغييرا في التصورات الثقافية للمجتمع. ومن هنا فإن عملية إعادة بناء الثقافة في المجتمع وصياغتها تربويا إنما هي تأكيد منهجي لعملية التغيير وتأسيس جوهري لإعادة تركيب البناء الاجتماعي وما يتطلبه من أدوات إجرائية وفي ذلك يقول مالك بن نبي: "إن التغيير ليس له أي معنى ثوري إلا في إطار التقدم. وإلا يكون تقهقرا، انه خطوة نحو الوراء بالنسبة لمسيرة الثورة".

وأساس التغيير الثقافي عند مالك بن نبي هو الدين. فالحضارات بصفتها هدفا لأي تغيير اجتماعي تقوم على الدين بوصفه عاملا أساسيا في تركيبها وإقامتها، على خلاف المذاهب المادية التي تجعله عارضا في تاريخ الثقافة الإنسانية. لقد حدد مالك بن نبي العلاقة بين الدين وظاهر المجتمع ووضح أن هذه العلاقة تتحدد بفرضية وتفسيرات. فالفرضية هي (الفكرة الدينية) والتفسيرات هي الإلمام بظاهرة التغيير الاجتماعي والوصول إلى الحضارة في مجتمع من المجتمعات في مرحلة من

وحدة واحدة تقوم بإحداث التغيير أي أن الفكرة الدينية توجد الرابطة التي تجعل عالم الأشخاص يتحرك وفق المحددات التي رسمها عالم الأفكار بوسائل من عالم الأشياء. والعالم الأول هم الأفراد المادة الأولية للنشاط الاجتماعي، ولكن ليسوا هم الأفراد العاديين، ولكنهم الأشخاص المقتنعون بيقين العقيدة والصالحون للقيام بهذا الدور التغييري، والمستعدون له بعد أن تم تعديل معادلتهم الاجتماعية، ليكونوا في مستوى من الفعالية الاجتماعية يؤهلهم للتغيير.

وأما العالم الثاني فيقصد به مالك بن نبي الطاقة المحركة للعالم والمحددة لوجهته التاريخية. وأما العالم الثالث فيقصد به مجموع الوسائل والإمكانات التي يمكن أن يستخدمها العالم الأول أثناء حركته الاجتماعية وسيره في التاريخ.

وهكذا نجد أن إحداث التغيير الاجتماعي يتطلب توفير شروط معينة، تمس الإنسان والتراب والزمن، والمجتمع، وثقافة هذا المجتمع، وهي نطاق (التغيير

نفس المجتمع بالإيمان بالمعبود، فإنه في الوقت نفسه يخلق شبكة العلاقات الاجتماعية التي تقوم بدورها بتهيئة المجتمع للقيام بدوره التاريخي ويحقق نشاط أفراد من خلال العمل المشترك. وبهذا نجد أن الدين يربط أهداف السماء بضرورات الأرض. فالجانب الغيبي للدين هو الذي يوفر (المبررات) ويوجد الإرادة الجماعية. ولا بد من تلازم القيم الأخلاقية بالناحية الاجتماعية في إطار هذا النشاط المشترك للأفراد، ذلك أن أي خلل في علاقة القيم الأخلاقية بالجانب الاجتماعي يؤدي إلى انهيار المجتمع وتدهوره.

ولمزيد من التوضيح لدور الدين في إحداث التغيير الاجتماعي يؤكد مالك بن نبي، على أن (الفكرة الدينية) هي المحرك الأساس للمجتمع، وآلية إحداثها للتغيير تتم من خلال تكوين وإنشاء العلاقات الاجتماعية التي تربط بين (عالم الأشخاص، وعالم الأفكار، وعالم الأشياء). فالفكرة الدينية هنا هي المركب Catalyseur أو العامل الرئيسي لتفاعل هذه العناصر لتصبح

إن ظاهرة تغيير الإنسان وتحديد مساراته في التاريخ، تتضح لدى مالك في عدد من معالمها سواء فيما يخص إطارها المفاهيمي والمصطلحات الجديدة التي أضافها لعلم الاجتماع مثل الفعالية الاجتماعية البناء، التكديس، القابلية للاستعمار، الأفكار القاتلة، والأفكار الميتة وجميعها مفاهيم ذات دلالات وظيفية اجتماعية. وما يخص محورية الدين في بنائها ودخوله في الجدلية النفسية الاجتماعية بين الفرد والمجتمع في الدورة الحضارية، وأن الدين هو منشئ الحضارة.

وفي نفس السياق دائما يمكننا أن ندرج أهم نظريات التطور الاجتماعي أو التغيير الاجتماعي إذ حاول مفكرو القرن التاسع عشر الذين جاءوا بعد "أغست كونت" اكتشاف قوانين تطور المجتمعات وأشهر محاولة في ذلك تلك التي قام بها "هربرت سبنسر" في كتابه: "مبادئ علم الاجتماع" حيث بين لنا فيه القانون العام للتطور الخاص بالمجتمعات وتقدم مشروع تغيير متكامل للعودة بالمجتمعات

الاجتماعي) الذي هو في موقع إمكانية الحدوث طالما كان هناك إمكانية إعادة تطبيق المبدأ القرآني في النفس الإنسانية في أي مرحلة نرغب أن يحدث فيها هذا التغيير الإرادي، المتعلق بالذات.

ويستخدم مالك بن نبي مفاهيم التحليل النفسي والتحليل التاريخي للظواهر الاجتماعية بصفتها أدوات معرفية يستعين بها من أجل البحث عن الانتظام الذي يحكم الظواهر الاجتماعية والتاريخية. وآراءه ترقى إلى مستوى النظرية في علم الاجتماع وخصوصا ما عرف منها بما يسمى بالاتجاهات الاجتماعية العامة. ولا تختلف هذه الاتجاهات العامة إذن عن سائر النظريات الدورية للتغيير الاجتماعي من حيث تصورها للظاهرة الاجتماعية التي يبدأ فيها التغيير من "الإنسان" ذاته باعتباره محور التغيير الثقافي والاجتماعي لدى الإنسان المسلم. إن واجبنا اليوم يكمن في تحويله اليوم من إنسان سلبي يجتر أفكار عصور الانحطاط إلى إنسان جديد فعال أو ايجابي قوي روحيا وأخلاقيا.

من القرن العشرين وإلا فإنه لن يستطيع إنقاذ الآخرين.

ويبدو لنا أن التاريخ الثقافي العربي في القرن العشرين تاريخ تغير ثقافي بالمعنى الأنثروبولوجي للثقافة الذي يشمل مجمل الجوانب المادية والمعنوية الاجتماعية. ويعكس هذا التاريخ مرحلة استقطاب أكثر مما يعكس توافقات اجتماع مستقر، ويمكن بلغة العلوم الاجتماعية نميط أنواع التغير وفق العلاقة مع محور الخطاب، بأربعة أنواع من الخطاب، هي الخطاب الليبرالي والخطاب القومي والخطاب الماركسي واليساري الجديد، والخطاب الإسلامي.

ولقد تجاوزت هذه الأنواع أو على الأقل عناصر منها في كل مراحل التغير الثقافي الكبيرة وشكلت بموجبها ما يمكن تسميته بلغة "ليوتار" بالسرديات الكبرى للفكر العربي الحديث. غير أن ما تميزت به حدة التغير الثقافي هو أن هذه الأنواع قد تبادلت فيما بينها أقسى أشكال الاستقطاب والصراع حول استملاك الحقل الأيديولوجي السياسي الاجتماعي، بوصفها خطابات تغير

الإنسانية إذ يرى بأن كل جسم يمر من طور بدائي يتسم بالتجانس و البساطة في بنيته لينتقل بعده إلى طور أعلى تعرف فيه هذه البنية تباينا أكثر فيعتمد فيها الإنسان على الصيد إلى أن تتطور إلى مستوى من التعقيد فتظهر السلطة المتمثلة في رب الأسرة، وقائد الجيش، والقائد الديني ثم إلى مستوى ثالث ألا وهو مستوى الحضارة.

ونعود مرة أخرى للحديث عن التغير الثقافي وعلاقته بالمجتمع ودور الإنسان فيه، فلا يمكنه أن يغير شيئاً في الخارج إن لم يغير شيئاً في نفسه. وحينما نقول هذه الكلمة نقولها ليس تبركا بآية ولكن نقولها ونعلم مقدارها من الصحة العلمية. إنه لا يستطيع المسلم أو غير المسلم أن يغير ما حوله إن لم يغير ما بنفسه أولاً فهذه حقيقة علمية يجب أن نتصورها كقانون إنساني وضعه الله عز وجل في القرآن كسنة من سننه التي تسير عليها حياة البشر.

ولكي يتحقق التغير إذن في محيطنا يجب أن يتحقق أولاً في أنفسنا. وهذا هو دور المسلم في الثلث الأخير

والإنسان والحياة وقد تحدثت باختصار عن الله تعالى وصفاته والمنهج الذي اختطه الإسلام لهداية الإنسان ليصل منه إلى خالقه بعد فهمه لدوره في الحياة ولرسالته في الوجود.

ومن الأهداف الأساسية للإسلام ولكل دين سماوي أن يوصل الإنسان بخالقه، وذلك عن طريق توجيه نظره لما حوله ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٠) ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: 20 - 21).

ويقول الله عز وجل في قيمة استخلافه للإنسان في الأرض: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيْرِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: 70).

والهدف من وجود الإنسان أن يعبد ربه. والوسيلة في ذلك هي النظر في الكون. وآلة ذلك العقل والحواس، ومن هنا يمكن أن نفهم سبب تكرار بعض العبارات في القرآن مثل " أفلا تعقلون" و"ولقوم يتفكرون". والتفكير هنا عبادة، لأنه يوصل إلى معرفة الخالق، لذا فما أن يفقد الإنسان عقله حتى يسقط عنه التكليف والمسؤولية.

بالمعنى الأنثروبولوجي أي خطابات تغيير اجتماعي شامل، ويقابل ديناميكية التناذب آلية التجاذب أحياناً، وهو ما يشير إلى ديناميكية الصراع حول الهيمنة بشكل يحاول فيه كل خطاب أن يسحب البساط من تحت أقدام الخطاب الآخر، ويدمجه في جهاز مفاهيمه.

و الدور العالمي للإسلام في عملية التغيير الثقافي والاجتماعي - بل وحتى السياسي - يتمثل في مقاومة الاستعمار ومشاريعه المختلفة. كما أن منطلقه في التغيير يقتضي نقل القيم الاجتماعية والأخلاقية الذاتية من حالتها الجامدة المنفصلة عن الحركة إلى حالة نفسية زمنية، فكل القيم النفسية ليست إلا ترجمة للعلاقة العضوية بين الفكرة الدينية والفرد والحضارة والتي ما هي إلا نتائج حركة أبناء المجتمع بتوازن معنوي ومادي يهدف إلى تحقيق ممارسة الدور لهذا المجتمع في تاريخ البشرية.

الإنسان محور التغيير.

لقد قدم الدين الإسلامي الحنيف للإنسانية منهاجاً واضحاً عن الله والكون

وذاك سام، لكن الإنسان مع ذلك قد يعمد إلى الضار فيستعمله أو إلى السم فيحتسبه أو يجرعه غيره، فتكون مهمة الروح هنا منعه من ذلك، فهي كالحارس، وكما أن الحارس قد يغيب أو ينام، فكذلك الروح قد تضعف، فيفقد الإنسان الرقابة كلاً أو بعضاً.

وحينما يضبط مالك بن نبي مفهوم الإنسان، فإنه لا يخرج في ذلك عن الإطار السماوي (الديني) الذي صاغه القرآن الكريم باعتبار الإنسان خليفة الله في الأرض خلقه لأجل إقامة الدين والحضارة وكل حضارة ينتجها الإنسان تمر بثلاث مراحل متعاقبة هي:

أ/ المرحلة الروحية: وتكون حية متدفقة بفعل قوة الإيمان.

ب/ المرحلة العقلية: وفيها تزدهر الحضارة بفعل النشاط العقلي الذكي والفعال.

ج/ المرحلة الغرائزية: وفيها تكثر الشهوات وتكدر الأشياء فتأذن بسقوط الحضارة.

غير أن النظرة الغربية للإنسان

فالتفكر يبدأ عادة بالمخلوق لينتهي بالخالق، لأن من طبيعة الإنسان البحث عن العلة والسبب.

لقد أفاض القرآن بالحديث عن الكون وحركته، ليعمل الإنسان فكره في ذلك، والإنسان قبل هذا وبعده مخلوق ترابي ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ الروم: 20. وعناصر تركيب الجسم الإنساني معروفة اليوم ومتى ما تحللت هذه العناصر عادت للتربة، وهذا من حسن حظ الإنسان، فلو تحجر الأموات منذ آدم حتى اليوم لغطوا وجه الأرض. فالإسلام يحقق النموذج الإنساني الكامل من حيث نمو جميع عناصره، من جسم وعقل وروح، نمواً كاملاً متوازناً.

وإذا أردنا تنظيم هذه العناصر عمودياً حسب أهميتها، فسيكون في القاعدة الجسم وفي الأعلى الروح وفي الوسط العقل. فالجسم يخدم العقل والعقل يخدم الروح، والروح -بحكم طبيعتها- هي التي تتصل بالله تعالى، بينما يؤمن العقل صلتنا بعالم الأشياء.

إن العقل هو ملكة الحكم على الأشياء، هذا خطر، وذاك نافع مفيد،

الغريزية التي ورثناها عن مرحلة ما بعد الموحدين كما تدعو فلسفة التغيير إلى الثورة على العقم الاجتماعي وعلى أحلام اليقظة وإن يقترن منطق العمل والحركة في المجتمع الإسلامي بمنطق الفكرة فيصبح الإنسان الجديد يفكر ليعمل، ويقول كلاماً منطقياً من شأنه أن يتحول إلى قيمة عمل ونشاط.

و تهدف نظرية مالك بن نبي في التغيير إلى إحداث التوازن بين المادة والروح وبين العلم والضمير في المجتمع الإسلامي الذي تنقصه "القوة المادية" ليدخل معترك الحضارة من جديد وينقذ البشر من كارثة أكيدة قد تحل بها من جراء اعتناقها للفلسفة المادية البشعة التي تقود خطى الحضارة الغربية ونزعتها النسبية المفرطة في الكم.

وفي هذا المجال يرى الدكتور عبد اللطيف عبادة أن المفكر مالك بن نبي سعى إلى بلورة نظرية معرفية تعتمد في طريقتها إلى البحث عن الحقيقة على كل وسائل المعرفة من خلال "الحواس والعقل والقلب"، ويكملها النقل بما يحتوي عليه من توجيهات ربانية

تختلف عن النظرة التي يقدمها القرآن الكريم للإنسان. فالفيلسوف البريطاني "راسل" يقدم لنا ثلاثة عناصر تبني عليها شخصية الإنسان وهي: الغريزة، الروح والعقل وهو قريب من وجهة نظر مالك بن نبي إلى حد كبير، غير أنه يقدم لنا ملاحظة ذكية عن الحضارة الغربية فيقول: إن التوازن فيها مفقود والحقيقة أن الكثير من الحضارات افتقدت التوازن وحتى الديانات وما ندري فربما جاء فقدان هذا التوازن لاحقاً بسبب التحريف.

وفلسفة التغيير عند بن نبي هي فلسفة شاملة ونسق كامل متكامل وروية متعددة الجوانب للإنسان وذلك من حيث علاقته بخالقه وعلاقته بالآخرين، أو في عملية صنعه للتاريخ أو في بنائه للحضارة، أو في مقاومته للاستعمار والقبالية للاستعمار، كما يمكن القول أن هذه المظاهر التي تتمحور حولها أفكار التغيير لا تعبر عن نظرية فقط بل هي تشمل العمل والنشاط والتغيير الفعال.

ومحور التغيير هو إذن النفس البشرية وذلك بنفض غبار المرحلة

وفي هذا الصدد ترى الأنثروبولوجية الأمريكية مارغريت ميد (MEAD.M) في هذا الخصوص أن من أهم عوامل تغيير الشخصية العامة للمجتمع هو التغير الثقافي. كما تتضح تغيرات الشخصية عبر الأجيال حيث أن اختلاف سمات شخصيات الآباء عن شخصيات الأبناء من الظواهر النفسية التي تميز بوضوح عملية التغير الثقافي في كل جيل من الأجيال يساهم بقدر معين في عملية هذا التغير الثقافي الذي يصطدم مع الشخصية العامة للمجتمع غالباً ما يكون مآله الفشل.

إن القول بأن تشكيل شخصية الأفراد في مجتمع معين هي منتوج لنوع الأنماط الثقافية السائدة في المجتمع، والتي يتفاعل معها الفرد على امتداد مراحل حياته. إن هذا لا يعني مطلقاً أن هذا الفرد آلة صماء تتأثر ولا تؤثر، وتأخذ ولا تعطي، وتتغير ولا تغير وإنما هي أمور نسبية، وتظل الكلمة النهائية. لإنسان على الخلق والإبداع، حيث إنه بحكم هذا التمييز الواضح من جهة وبحكم الفروق الفردية في المواهب

للفكر الإنساني وفي السياق ذاته تعمل هذه الأفكار على إثراء مبادئ الإنسانية، وهي تقوم حسب بن نبي، على أسس غيبية أرساها القرآن الكريم وفي مقدمتها التكريم الإلهي الذي يحظى به ابن آدم.

دور الثقافة في تنمية الشخصية.

من الحالات التي يظهر فيها تأثير الثقافة في الشخصية هو التغير الثقافي الذي يحدث بكيفية طبيعية ومستمرة بدرجات متفاوتة من مجتمع إلى آخر بحسب درجة تعقد الظواهر الثقافية في المجتمع وبساطتها، إلا أن الذي يهتما في الموضوع بغض النظر عن سرعة هذا التغير أو بطئه هو ما يصيب هذا التغير من تأثير واضح على الشخصية الأساسية في المجتمع وبصفة أوضح على شخصيات المركز وخاصة في المجتمعات المتمدنة ذات الثقافة المعقدة التي تتصف بأكبر قدر من السرعة في التغير وأقل قدر من التجانس على خلاف المجتمعات الصغيرة التي تتصف ثقافتها بأقل قدر من التعقيد.

الأولى هو طريقة "روبنسون كروزو" في ملء فراغه بالعمل لصناعة أشياء والصيد وتقسيم وقته في انشغالات مادية، على حين مثله على الطريقة الثانية الإسلامي "حي بن يقظان" الذي يقضي وقته في البحث عن الحقيقة المطلقة.

وهو يصادر على أن الطريقة الأولى تنسجم مع الطبع الأوربي الآري الذي يهتم بتركيب الأشياء والأشكال والتركيب التقني والجمالي ويفتقد العنصر الغيبي على حين تنسجم الطريقة الثانية مع العنصر السامي الذي يطفئ لديه العنصر الديني ولا ينشغل بالمشاغل الأرضية هو لا يؤلف الأشياء بل يؤلف بين فكرتين هما: فكرة الحق وفكرة الخير أي: الأفكار كخبرة حضارية جماعية.

مصطلح الأفكار يعني عند مالك بن نبي أيضا الخبرة المتموضعة على شكل بنية جماعية عقلية نفسية تجعل المجتمع يبني الهيكل المادي للحضارة ويعيد بناءه بسرعة حتى لو تعرضت للتدمير بفعل كارثة كالحرب مثلا.

ومثاله المفضل هو المجتمعان

والقدرات الثابتة علميا بين الأفراد في المجتمع الواحد من جهة أخرى، على الرغم من خضوع هؤلاء الأفراد لنظام تربوي واحد وأنماط ثقافية موحدة في عمومها وبصفة أخص في المجتمعات الصغيرة قد بات من الضروري أن يوجد دور مؤثر وفعال في الثقافة وفي مظاهرها المختلفة.

دور الأفكار في تنمية الإنسان.

يستعمل مالك بن نبي مصطلح الأفكار بمعنى الحقائق ولا سيما الحقائق الكبرى ذات الطابع الكوني الشامل، وهذا حينما يتحدث عن طريقتين مختلفتين تميزان الحضارة الغربية و الشرق الإسلامي في ملء الفراغ الكوني. فإما أن ينظر الإنسان حول قدميه أي نحو الأرض، وإما أن يرفع بصره نحو السماء، والطريقة الأولى تؤدي إلى شغل فراغ الإنسان بأشياء، أي أن نظريته المتسلطة تريد أن تستحوذ على أشياء بينما الثانية تؤدي إلى شغل هذا الفراغ بالأفكار أي أن نظريته المستفسرة ستكون في بحث دائم عن الحقيقة.

والمثل الذي يضربه على الطريقة

القرن التاسع عشر كانت العلاقات بين الأمم والشعوب علاقات قوة، وكان مركز الأمة يقدر بعدد مصانعها ومدافعها وأساطيلها البحرية ورصيدها من الذهب. ولكن القرن العشرين قد سجل في هذا الصدد تطورا معلوما هو أنه قد أعلى من الفكرة باعتبارها قيمة قومية ودولية. هذا التطور لم تشعر به البلدان المتخلفة كثيراً لأن عقدة تخلفها ذاتها قد نصبت في طريقها ضرباً من الغرام السقيم بمقاييس القوة أي بالمقاييس القائمة على الأشياء .

وإذا ما أردنا تحديد دور الأفكار في ظاهرة التثقيف، ينبغي أن نحدد في أي الظروف التاريخية والاجتماعية تؤدي دورها ؟ .

إن النشاط الاجتماعي والثقافي لفكرة ما مرتبط في الواقع ببعض الشروط النفسية والاجتماعية التي بدورها تفقد الفكرة فاعليتها. ففكرة (التقدم) مثلاً قامت بدور رئيسي في تاريخ القرن التاسع عشر لأن إشعاعها في ثقافة أوروبا كان مؤيداً بفكرتين هما: النظرية الوضعية ل(أوجست

الياباني والألماني اللذان كانا بعد الحرب العالمية في حالة عوز هائل في الأشياء ولكنهما كانا غنيين بالأفكار، مما مكّنهما من إعادة بناء الهيكل المادي لهما بسرعة قياسية، بخلاف المجتمع الاندونيسي مثلاً الذي كان غنيا بالموارد المادية المطلوبة للبناء، ولكن الخطة التي وضعها الدكتور "شاخ" لبناء ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى ونجحت فيها نجاحاً باهراً، لم تنجح في اندونيسيا حين استدعت الحكومة الاندونيسية "شاخ" بالذات للإشراف على تطبيق خطته ذاتها. لكنها لم تنجح بفعل العوز في الأفكار في المجتمع الأندونوسي .

وإذا ما جئنا للبحث عن أهمية الأفكار في حياة مجتمع معين فإنها تتجلى في صورتين هما: إما أن تؤثر بوصفها عوامل نهوض بالحياة الاجتماعية، وإما أن تؤثر على عكس ذلك بوصفها عوامل ممرضة تجعل النمو الاجتماعي صعباً أو مستحيلاً .

وهناك فضلاً عن ذلك جانب آخر لأهمية الأفكار في العالم الحديث: ففي

انه لامجال إذن لأن ننكر الشيء في خلق الثقافة، ولكننا لا يمكن بحال أن نخضع له الفكرة، بل ينبغي أن نعترف لها بأسبقية معينة في هذا المجال، وبقدر ما يصيب علينا ملاحظة هذه الأسبقية في المرحلة الديناميكية، في نمو ثقافة معينة وفي حركتها، فإنها تكون ظاهرة في المرحلة الأستاتيكية أي في بداية تحريك الذراع والعجلة، عندما تبدأ عملية التثقيف .

وليست الفكرة هي التي تفقد وحدها معناها الثقافي وقدرتها على إبداع الأشياء، "فقد تكون فكرة ما صالحة وليست صحيحة وقد تكون فكرة صالحة لكنها فقدت صلاحيتها لأي سبب. ألسنا نشعر أن ديننا هو أوضح من حيث الصحة من شمس النهار... لكن بسبب تقاعسنا و نومنا في النهار فقد بعض صلاحيته."

إن الشيء نفسه يفقد أيضا مقدرته على إنتاج الأفكار. فخذ مثلا على ذلك تفاحة (نيوتن) الشهيرة، وتخيل ما كان يمكن أن تؤديه لو أنها بدلا من أن تقع على رأس ذلك الرياضي الكبير وقعت على رأس جده

كونت)، والنظرية التطورية لـ (داروين). بيد أن هذه الفكرة التي أصيبت بصدمة خلال حرب 1914-1918 أصابتها ضربة قاتلة خلال الحرب العالمية الثانية، لم يعد لها أدنى وقع في أوروبا.

وليس معنى هذا أن التقدم في ذاته بوصفه واقعا قد انعدم في أوروبا، بل معناه أن إشعاعه بوصفه فكرة قوة فقد تأثيره في الثقافة الأوروبية، ففقد من أجل هذا فاعليته الاجتماعية. فإن فاعلية الفكرة رهن بشروط نفسية واجتماعية تتنوع بتنوع الزمان والمكان.

وتتجلى المقدرة الخلاقة للفكرة في التفاصيل ذات الأهمية البسيطة. كما يمكننا أن نلاحظه في هذه الأيام في قربات الباعة الجوالين في شوارع القاهرة، حيث يبيعون (الفوانيس) الملونة لتسلية الأطفال في ليالي رمضان. فمن الواضح أن (الفوانيس) - وهي شيء - قد أوجدها معنى رمضان أعني باعتباره شعائر دينية وفرضا إسلاميا يحث المسلمين على الجد و النشاط ويبعث روح الاحتفال أيضا.

الذي عاصر عهد غيوم الفاتح!

وبالنتيجة فإنه يمكن القول إن ما يحدث بين ثلاثية الأشياء والأفكار والأشخاص هو ذلك الاختلال في التوازن بين هذه المكونات الثلاثة وما يليها من فساد في التصورات بحيث تصبح تدور حركة المجتمع من خلالها في فلك طغيان الشيء أو الشخص أو الصنم.

وأما من حيث طغيان الأشخاص: فإن مالك بن نبي يوضح لنا مشكلة كبرى فادحة نواجهها بالفعل ألا وهي أننا غير قادرين على الفصل بين المبادئ والأشخاص الذين يمثلونها ويجسدونها أو بمصطلحات بن نبي عدم القدرة على الفصل بين الفكرة المجردة والفكرة المجسدة. وفي ذلك يقول: "عندما يتجسد المثل الأعلى في شخص يظهر خطران أولهما أن جميع أخطاء هذا الشخص تحسب على عاتق المجتمع الذي جسم فيه مثله الأعلى وثانيهما أن جميع انحرافاتة يقع وزرها أيضا على المجتمع، وتظهر إما في صورة تنحية للمثل الأعلى الذي هوى، وإما بالإرادة

عندما يعتقد أن تعويض الحرمان يكون باعتناق مثل أعلى جديد دون أن يتفطن أحد في كل هذه الحالات إلى أنه حدث استبدال خفي لمشكلة الأفكار بمشكلة الأشخاص. ولذلك نجد القرآن الكريم يحذر المسلمين من هذا الموقف الخاطئ عندما قال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ آل عمران: 144.

إن المثل الأعلى باعتباره أساسا من أسس التربية يجعل الثقافة الإطار المرجعي العام للمنتوج القيمي للمجتمع. فالحضارة متى اشتدت قوتها وإشعاعها كانت تسري هذه القوة في مختلف مظاهرها ومتى كانت التربية فعالة وصانعة لأدوات الحضارة كانت الروح المجردة للفعل الحضاري.

وأما من حيث طغيان الأفكار فإن الأمر ببعض المثقفين قد يصل إلى الاعتزال عن المجتمع وانقطاع علاقة أفكارهم بهذا المجتمع كما هي الحالة في بعض المثقفين الأوروبيين الذين ساروا في ركاب الفلسفة الوجودية، كما نجد حالات مشابهة في بعض بلدان

الانزلاق من الأحكام النوعية إلى الأحكام الكمية نجدها بالفعل في بعض البلاد التي قادها شعورها بالعجز الفكري، وعدم قدرتها على الخوض في غمار المعالجة الناجحة للفكر المعاصر و عدم القدرة على اكتشاف قيمة أصحاب الأفكار المبدعة فسادت المعايير الكمية ولم يوضع الشخص في الموضع الصحيح الذي يوضع فيها أصحاب الأفكار.

آلية توجيه الأفكار.

يرتبط توجيه الأفكار بمشكلة الثقافة من الوجهة التربوية في جوهرها لذلك نحدد المعنى العام لفكرة التوجيه فهو بصفة عامة قوة في الأساس وتوافق في السير ووحدة في الهدف فكم من طاقات وقوى لم تستخدم لأننا لا نعرف كيف نكتلها، وكم من طاقات وقوى ضاعت فلم تحقق هدفها حين زاحمتها قوى أخرى صادرة عن المصدر نفسه متجهة إلى الهدف نفسه .

فالتوجيه هو تجنب الإسراف في الجهد وفي الوقت، فهناك ملايين السواعد العاملة والعقول المفكرة في البلاد

العالم الثالث حيث يلغي المثقف فيها الواقع معوضاً إياه بالكتب أو المؤلفات كما هي الحالة عند بعض الحركات السياسية التي عادت المجتمع واعتقدت أنها تمثل الحقيقة المطلقة التي تعطيها الحق في تفكيك المجتمع أو في إعادة بنائه بالعنف .

وخلافا لما هو شائع ،لم يبدأ هذا المرض عند الحركات المتدينة بل بدأ عند الحركات العلمانية أو اللادينية كنظام "بول بوت" في كمبوديا أو نظام "ستالين" في روسيا غير أن بعض الحركات الصغيرة المحسوبة على الإسلام وقعت في هذا المطب حينما اتبعت نهجا يكفر المجتمع بكامله وعدت نفسها هي الوحيدة المالكة للحقيقة أو هي وحدها على صواب و يقين .

وتحتل الأشياء قمة سلم القيم. فتتحول الأحكام النوعية خلصة إلى أحكام كمية فتظهر النزعة التراكمية أو تكديس الأشياء ويصبح عدد هذه الأشياء هو المعيار للنجاح وليس استخدامها الفعلي.

وملاحظة بن نبي الوجيبة عن

القصد، وحينئذ لا يفسر موقفه إلا بجهله في المشكلات الإنسانية غير الموجهة توجيهها اجتماعيا صحيحا.

وطبيعي أن يفقد النشء فاعليته إذا ما أراد إظهاره عمدا للمقاييس والقواعد وفي كلمة واحدة إذا ما أراد إظهاره للأفكار. فإذا به يضل في متاهة من الإبهام والغموض والشك، دون أن يدرك أنه قد زاغ عن سواء السبيل. لكن هناك شخصية أخرى تمثل نموذجا آخر من انعدام الفاعلية، فهي بصفة عامة رجل مخلص وهبته الطبيعة فكرا خصبيا. لكن لديه ذوقا خالطه الترف العقلي فهو طروب لا يتخيل الفكرة منوالا تنسج عليه ضروب النشاط الاجتماعي أشبه بمن بجمع التحف والأشياء الثمينة.

ولو أنني وصفت هذا الفكر بصورة أستعيرها لقلت: إنه ليس مصنعا تتحول فيه الأفكار إلى أشياء، بل هو مخزن تتكدس فيه الأفكار بعضها فوق بعض.

أهم الاستنتاجات:

- إن النموذج مالك بن نبي التغييري يعتمد على الإنسان باعتباره موضوع أو محور العملية التغيرية في جوهرها.

الإسلامية، صالحة لأن تستخدم في كل وقت، والمهم هو أن ندير هذا الجهاز الهائل المكون من ملايين السواعد والعقول، في أحسن ظروفه الزمنية والإنتاجية.

وهذا الجهاز حين يتحرك يحدد مجرى التاريخ نحو الهدف المنشود، وفي هذا تكمن أساسا فكرة توجيه الإنسان الذي تحركه دوافع دينية. وبلغة الاجتماع الإنسان الذي يكتسب من فكرته الدينية معنى الجماعة ومعنى الكفاح.

وليس يكفي مطلقا أن ننتج أفكارا، بل يجب أن نوجهها طبقا لمهمتها الاجتماعية المتحدة التي نريد تحقيقها، وهنا يطالعنا موقفان متعارضان في الظاهر، ولكنهما مع ذلك نتيجة لوجهة النظر الاجتماعية، ففي البلاد العربية غالبا ما نصادف هذين الموقفين متجسدين في شخصيتين مختلفتين.

وهناك من يدعي أداء العمل السياسي مثلا دون أن يرجع في عمله إلى قاعدة أو فكرة معينة كأن من الممكن أن يكون النشاط فعالا وفاعله أعمى، وهذا (الرجل العملي) غالبا ما يكون سليم

- إن النموذج مالك بن نبي نموذج كامل المعالم أي أنه يقوم على مركزية الإنسان في عملية التنمية القائمة على غرس الأفكار السليمة وحسن التربية كآليتين لتحقيق التنمية البشرية في مفهومها العام ألا و هو تحقيق الحضارة.■

للموضوع هوامش

- يقوم النموذج مالك بن نبي على البعد الإنساني في عملية التنمية في عمومها سواء على المستوى الأخلاقي أو السياسي أو الاجتماعي.

- يتجاوز النموذج مالك بن نبي النظرة المادية لمسألة التنمية باعتباره يقوم على تحقيق الانسجام المعنوي والروحي الذي يتحكم في الجوانب المادية والاجتماعية للإنسان.

